الفصل التاسع

انتفاضة الأقصى وجذور العنف الصهيونى

نشاهد يوميًا فى الفضائيات مدى عنف الاستجابة الإسرائيلية للانتفاضة الفلسطينية، وهو عنف لم نرى مثله من قبل فى عمليات القمع الإسرائيلية. والحق يقال إننى توقعت هذه المواجهات العنيفة منذ أن بدأ ما يسمّى بعملية السلام. وشعرت باقترابها حينما صرّح أحد المفاوضين الفلسطينيين أنه لم يتم التوصل إلى سلام دائم وإنما إلى مفاوضات سلام دائمة، وهو تعليق ساخر تشوبه المرارة يصف الطريق المسدود الذى دخلته عملية السلام، والذى جعل الفلسطينيين يدركون مدى عبثية عملية أوسلو بأسرها.

ومع هذا حين اندلعت انتفاضة الأقصى وحين قوبلت بكل هذا العنف الإسرائيلى، اعترتنى الدهشة، وتساءلت كيف يمكن للإسرائيليين بعد هذا أن يستمروا فى الزعم أنهم يريدون التعايش جنبًا إلى جنب مع الفلسطينيين، خاصة بعد أن تم إسقاط أهم الثوابت الفلسطينية (عدم الاعتراف بإسرائيل - الميثاق الوطنى الفلسطينى) وتم وضع علامة استفهام

على بعضها (عودة اللاجئين)، وكل هذا من أجل سلام يتسم بالحد الأدنى من العدل.

الرؤية الصهيونية للواقع

لم يكن أمامى من سبيل لفهم كل هذا العنف إلا بالعودة للرؤية الصهيونية للواقع التى تحدد إدراك الإسرائيليين لأنفسهم ولمن حولهم. وإدراك المرء للواقع (وليس الواقع فى حد ذاته) هو الذى يحدد سلوكه وكيفية استجابته لما يدور حوله. كان علىّ العودة إلى المقولة البسيطة الساذجة التى تشكل اساسًا للتصور الصهيونى للواقعن وهى أن فلسطين «أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض» والنصف الثانى من المقولة، أن اليهود شعب جائل لا وطن له، ثبت كذبه، إذ إنه بعد قرن كامل من الاستيطان الصهيونى وبعص نصف قرن من إعلان الدولة، لاتزال الغالبية الساحقة ليهود العالم موجودة خارج الدولة الصهيونية، مما ينفى عن هذه الدولة صفة أنها وطن كل يهود العالم، وينفى عن اليهود صفة أنهم شعب يتطلع للعودة لوطنه، ومع هذا أمكن للدولة الصهيونية التعايش مع هذا الوضع وأن تستمر فى طريقها، كأن شيئًا لم يحدث.

أما بالنسبة للنصف الأول من المقولة «أرض بلا شعب» فالمسألة أكثر عمقًا ولا تتحمل أى تهاون، إذ إن الإجماع الصهيونى (الذى يشكل الإطار الإدراكى والأيديولوجى لكل الصهاينة) يستند إليها، ففلسطين، من منظور صهيونى، هى إرتس يسرائيل، وطن اليهود القومى، ومن ثم

فإن اليهود، كل اليهود، لهم حقوق مطلقة فيه، والحقوق المطلقة لا تقبل الآخر، مما يعنى إنكار حقوق العرب فى أسوأ تقدير أو تهميشها فى أحسنه ومن هنا قانون العودة الصادر عام ١٩٥٠، الذى وصفه بن جوريون - عن صدق - بأنه عمود الصهيونية الفقرى، وهو قانون يمنح أى يهودى ترك «وطنه المزعوم» من عدة آلاف من السنين «الحق» فى العودة ليصبح مواطنًا فور «عودته» وتنكر، فى الوقت ذاته، هذا الحق على ملايين الفلسطينيين القابعين فى مخيمات اللاجئين.

هذا الإجماع هو ما يتفق عليه كل الصهاينة، متطرفهم ومعتدلهم، يمينهم ويساريهم، رأسماليهم واشتراكيهم، وهو شكل من أشكال العنف الفكرى، فهو رؤية اختزالية للواقع المركب يستبعد من وجدان الصهاينة فلسطين وشعبها وتاريخها بل وجغرافيتها. والصهيونية فى هذا لاتختلف عن التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية الأخرى، حين يتم نقل كتلة بشرية من أوربا ويتم توطينها فى أرض جديدة، وعادة ما يشارك أعضاء هذه الكتلة فى تبرير موقفهم باللجوء إلى ديباجات مختلفة ولكنها مع هذا لها سمات ثابتة:

١ - فكل المستوطنين عادةً ما يتجهون إلى إلغاء الزمان (التاريخ) أو تجميده والانفصال عن المكان. ونقطة البداية عند المستوطنين البيض لابد أن تُغيّب السكان الأصليين تمامًا. ونقطة البداية عند المستوطنين البيض المهاجرين من العالم الغربى هى عادة رفض تاريخ بلادهم الأصلية، باعتباره تاريخ اضطهاد وكفر. ويحاول المهاجرون أن يضعوا حلاً نهائيًا

لشاكلهم وأن يبدأوا من نقطة الصفر الفردوسية في الأرض الجديدة، ويتضح هذا الجانب في أسطورة الاستيطان الصهيونية التي تبدأ برفض تاريخ اليهود في المنفى (وضمن ذلك العالم الغربي) والصهيونية هي الحل النهائي الذي يطرحه الصهاينة والاستيطان في صهيون هو نقطة البداية والصفر.

٢ – ينكر المستوطنون البيض تاريخ السكان الأصليين في الأرض التي سيهاجرون إليها ويستوطنون فيها. فهي عادةً أرض عذراء بلا تاريخ، غير مأهولة بالبشر (أرض بلا شعب)، على عكس الأرض التي يأتي منها المستوطنون، فهي مكتظة بالسكان.

ومرة أخرى نجد أن أسطورة الاستيطان الصهيونية تعبِّر عن هذا بشكل متبلور، إذ يزعم الصهاينة أن فلسطين هي إسرائيل أو صهيون، وأن تاريخها قد توقَّف تمامًا برحيل اليهود عنها، بل إن تاريخ اليهود أنفسهم قد توقَّف هو الآخر برحيلهم عنها. ولن يستأنف هذا التاريخ إلا بعودتهم إليها، ولكنه تاريخ جديد خال من الاضطهاد والصراع، فهو أقرب إلى التاريخ المقدَّس.

٣ – لا تؤكد أسطورة الاستيطان الغربية نهاية التاريخ وحسب وإنما نهاية الجغرافيا كذلك، فالأرض التي يستوطن فيها الإنسان الأبيض هي أرض وحسب، ليس لها حدود واضحة ولذا فهي تتسع حسب قوة الإنسان الأبيض الذاتية، كلما زاد عدد المستوطنين وازدادوا قوة اتسعت الحدود. ومن هنا فكرة الرائد والجبهة المتسعة دائما. والرائد هو الذي

يرتاد أرضا جديدة دائما، لا يعرف حدودًا ولا قيودًا ولا سدودًا. وارتباط نهاية التاريخ بنهاية الجغرافيا أمر متوقع، ففكرة الحدود فكرة إنسانية حضارية غير طبيعية، أما عالم الطبيعة والمادة فلا يعرف الإنسان، ومن ثم فهو لا يعرف الحدود.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية هى أسطورة التوسع بالدرجة الأولى، فإرتس يسرائيل ليس لها حدود واضحة. فالعهد القديم يحتوى أكثر من خريطة والمستوطنون الصهاينة أطلقوا على أنفسهم مصطلح «حالوتسيم» أى «رواد».

٤ - إذا حدث أن كانت الأرض التى يقال لها «عذراء» مأهولة بالسكان فإن أسطورة الاستيطان الغربية تحاول تهميشهم، فهم قليلو العدد متخلفون يفتقرون إلى الفنون والعلوم والمهارات المختلفة، يهملون الثروات الطبيعة الكامنة فى الأرض. وهم عادةً مجرد رحالة لايستقرون فى أرض ما، وهم شعب لا تاريخ له، فأعضاؤه جزء لايتجزأ من الطبيعة (كالثعالب والذئاب) ومن ثم لا حقوق لهم. لكل هذافإن وجود مثل هؤلاء الناس هو وجود عرضى ومن الضرورى وضع حل جذرى ونهائى للمشكلة الديموجرافية، أى مشكلة وجود السكان الأصليين فى الأرض العذراء وضرورة اجتثاث شأفتهم تمامًا.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية تنظر للوجود الفلسطينى فى فلسطين باعتباره أمرا عرضيا هامشيا، والاعتذاريات الصهيونية مليئة بالحديث عن فلسطين باعتبارها أرض مهجورة مهملة، وكثيرًا ما يتحدث الصهاينة

عن الفلسطينيين كما لو كانوا جزءًا من الطبيعة بلا تاريخ. وكل هذا ينتهي بطبيعة الحال بتأكيد حق اليهود المطلق في فلسطين. وتحاول الحركة الصهيونية وضع حل نهائي للمشكلة الديموجرافية فقامت أحيانًا بالإبادة (دير ياسين - كفر قاسم) ولكن الطرد كان الشكل الأساسي، وبعد اتفاقيات أوسلو أخذ الحل النهائي شكل عزل السكان الأصليين داخل مجموعة من القرى والمدن ومحاصرتهم بالقوات العسكرية الإسرائيلية والطرق الالتفافية.

٥ - تم تبرير الرؤى الاستيطانية الإحلالية عن طريق القصص الإنجيلية، وهنا يحدث تلاق كامل بين أسطورة الاستيطان الغربية العامة وأسطورة الاستيطان الصهيونية، فالمستوطنون البيض (وضمنهم الصهاينة) ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم من الآباء (البطارقة) الذين تركوا بلادهم ليستقروا في بلاد أكثر اتساعا، أو في أرض عذراء لم يستوطن فيها أحد من قبل، وهم مثل العبرانيين يخرجون من مصر (أوبابل) أرض المنفى البغيضة، وينسلخون من تاريخها ليعودوا إلى صهيون (الجديدة) بأن «يصعدوا» لها. فإن وجدوها مأهولة فأهلها إذن من الكنعانيين الذين لا حق لهم في الأرض ومصيرهم هو الحل النهائي: الطرد أو الإبادة.

وغني عن القول أننا حينما نتحدث عن «أسطورة» فنحن لانتحدث عن واقع تشكل ولا حتى عن برنامج عمل، وإنما عن قصة أو قصص يوجد فيها بشكل كامن نموذج معرفي، وهذه القصة مستبطنة تمامًا، تعبّر

عن نفسها بشكل جزئى وتتحقق بعض جوانبها فى أماكن وأزمنة متفرقة، ولاتتحقق مجتمعة إلا فى لحظة نماذجية نادرة.

استنادًا إلى كل هذه التبريرات الأسطورية يدّعى المستوطنون أن لهم حقًا فى اغتصاب الأرض الجديدة من سكانها الأصليين ويحل لهم إبادتهم أو طردهم. والولايات المتحدة مَثل واضح على الاستعمار الإحلالى الذى يلجأ للإبادة، والدولة الصهيونية هى مثل واضح على النوع الثانى المبنى على الطرد.

ومما عمق من العنف الإدراكى لدى الصهاينة، هو تفسيرهم للعقيدة اليهودية. فقد حوّلوا العهد القديم إلى فلكلور الشعب اليهودى، وهو كتاب تفيض صفحاته بوصف حروب كثيرة خاضها العبرانيون ضد الكنعانيين وغيرهم من الشعوب التى أبادوا بعضها، وهو يفصل فصلاً حادًا بين الشعب اليهودى المقدس والأغيار (أى غير اليهود)، بكل ما يتبع ذلك من ازدواجية فى المعايير تجعل الآخر مباحا تمامًا وتجعل استخدام العنف تجاهه أمرًا مقبولاً. والصهاينة فى هذا – بالمناسبة – لايختلفون كثيرًا عن المستعمرين البيض فى أمريكا الشمالية وجنوب إفريقيا وغيرها من الجيوب الاستيطانية. فأعضاء الكتلة البشرية الوافدة دائما يزعمون أنهم أكثر تفوقًا من السكان الأصليين (فهم شعب مختار أو جنس أبيض متفوق أو رسل حضارة) وبأسم هذا التفوق يقومون بإبادة كل من يقابلهم من كنعانيين أو هنود حمر أو فلسطينيين.

كما أن الصهاينة (على عكس ما يتصور الكثيرون) يكرهـون الشخصية اليهودية وينعتونها بالسلبية والهامشية والخنوع والعجز، ولـذا طالبوا بتحديث الشخصية اليهودية حتى يمكن أن تتخلص من خنوعها وتصبح شخصية قادرة على القتل، وكما قال بيجين: «أنا أحارب، إذن أنا موجود». ومن قبله أوصى أستاذه جابوتنسكى اليهود بأن يتعلموا الذبح من الأغيار «فالتوراة والسيف أنزلا علينا من السماء».

الرؤية الصهيونية للعرب

وقد طوّر الصهاينة صورًا إدراكية للعربى تنزع عنه إنسانيته وتُجرده تمامًا حتى تُغيّبه. وتتسم هذه النظرية بتصاعد معدلات التجريد إلى أن نصل إلى النقطة التى يتحقق فيها النموذج الصهيونى الإدراكى وهى التغييب الكامل للعرب:

١ - العربى كعضو فى الشعوب الشرقية الملونة (تخفيض العربى):

وفى إطار هذا التصوُّر ، يُقدِّم الصهاينة وصفًا للشخصية العربية على أنها شخصية متخلفة، ومثل هذا الوصف أمر شائع فى الاعتذاريات العنصرية وفى أدبيات الاستعمار الأوربى، فالوصف هنا ليس وصفا للعربى بقدر ما هو وصف لأى آسيوى أو أفريقى (أو حتى أى أمريكى اسود)، والاستعمار الصهيونى، فى أحد تصوراته لنفسه، كان يرى أنه جزء (تابع) لايتجزأ من الحركة الإمبريالية الغربية، ومن الهجمة

العسكرية الحضارية على الشرق العربى لإدخال الحضارة والسكك الحديدية والبلاستيك والقنابل.

٢ - العربى ممثلا للأغيار (تجريد العربى):

وقد وُصف الأغيار فى الأدبيات الصهيونية بأنهم: ذئاب، قتلة، متربصون باليهود ، معادون أزليون لليهود، و«الأغيار» مقولة مجردة، بل إنها أكثر تجريدًا من مقولة «اليهودى» فى الأدبيات النازية، أو مقولة «الزنجى» فى الأدبيات العنصرية البيضاء، وهى أكثر تجريدًا لأنها لاتضم أقلية واحدة، أو عدة أقليات، أو حتى عنصرا بشريا بأكمله، وانما تضم كل الآخرين فى كل زمان ومكان وقد وضع الصهاينة الإنسان العربى على وجه العموم، والفلسطينى على وجه الخصوص داخل مقولة «الأغيار» حتى يصبح بغير ملامح أو قسمات.

وتظهر مقولة «الأغيار» هذه فى وعد بلفور (أهم الوثائق الصهيونية) حيث أشار إلى العرب (الذين كانوا يشكلون أكثر من حوالى ٩٣٪ من مجموع السكان) على أنهم «الجماعات غير اليهودية»، دون تحديد هذه الجماعات أو ذكر اسمها، حتى تظل هذه الجماعات عند مستوى عال من التجريد، إن هذه الجماعات غير اليهودية هى أية جماعة إنسانية تشغل الأرض التى سيستوطن فيها الشعب اليهودى. وبينما كان هرتزل يتفاوض بشأن كريت موقعًا للإستيطان الصهيونى كتب عن الجماعات غير اليهودية التى تقطنها بطريقة تنم عن عدم الاكتراث والتجريد، فقد وصفهم بأنهم «عرب، يونانيون، هذا الحشد المُختلط من الشرق».

٣ - تهميش العربى :

إن عملية التجريد السابقة تستهدف تهميش العربى حتى لايشغل مركز الأحداث بالنسبة لفلسطين. والعربى الهامشى نمط أساسى فى الإدراك الصهيونى للعرب. إن الصهاينة ينكرون وجود أية هوية سياسية للعرب عامة، وللفلسطينيين على وجه الخصوص أو أية مشاعر قومية من جانبهم، فالصهاينة فى إدراكهم للثورات العربية عليهم ينكرون طبيعتها القومية والسياسية ويؤكدون لأنفسهم ولرفاقهم أن الدافع إليها ليس حب الأرض أو الوطن أو التمسك بالتراث، فالدافع إليها هو التعصب الدينى، وقد كان الصهاينة يلومون المسيحيين العرب، أحيانًا، باعتبارهم الأعداء الحقيقيين لمشروعهم الاستيطانى، ويصورون المسلمين فى صورة الفريق الطيب الذى يمكن التفاهم معه، وكانوا أحيانًا أخرى يفترضون العكس، فيؤكدون أن المسلمين هم العدو الحقيقى، وأن المسيحيين هم الفريق الذى يبدى استعدادًا كبيرًا للتعاون. وكانت الجماهير الفلسطينية بالنسبة إليهم مجرد غوغاء يتلاعب بها مثيرو الشغب من الإقطاعيين والأفندية ولاتحركها الدوافع القومية. ويرى سمحا فلابان أن وايزمان كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن تمرد هذه الجماهير ليس تعبيرا صادقًا عن حركة قومية خلاقة وإنما كانت تمليه الاعتبارات الإقطاعية القبلية الضيقة.

وإلى جانب هذا، كان الصهاينة يرون الفلسطينى أو العربى حيوانًا أو مخلوقًا اقتصاديًا محضا تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة. وإذا ، فيمكن حل المشكلة العربية (حسب هذا التصور) فى إطار اقتصادى

لايكون سياسيا بالضرورة، ولعل من الأمثلة الأولى على هذه الإستراتيجية الإدراكية رشيد بك، هذا العربى الذى تم تخليقه حسب المواصفات الصهيونية فى رواية هرتزل «الأرض الجديدة القديمة» ، فهو يؤكد أن الوجود الصهيونى قد عاد على العرب بالنفع الكبير، لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، كما أن الهجرة اليهودية كانت خيرًا وبركة، خصوصًا بالنسبة لملاك الأراضى لأنهم باعوا أرضهم بأرباح كبيرة، وظل لفيف من الصهاينة يؤمنون إيمانًا راسخًا بإمكان التغلب على معارضة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التى سيجلبها الاستيطان الصهيونى، وعن طريق حثهم على الرحيل إلى البلاد العربية بعد إعطائهم التعويض الاقتصادى المناسب عن وطنهم. وكانت إحدى القناعات الإدراكية عند وايزمان أن تطور فلسطين سيؤدى إلى أن يفقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية.

٤ – العربى الغائب :

إن ذكر العرب، ولو فى مجال التشهير بهم، هو اعتراف ضمنى بهم، ولكن الصهاينة يحاولون إخفاء العرب بإدخالهم فى مفهوم مقولة «الأغيار» المجردة، هذا الاتجاه يصل إلى قمته فيما يمكن أن نسميه مقولة «العربى الغائب»، فبدلا من الإخفاء الجزئى خلف مقولة مجردة، تصل محاولة الإخفاء إلى حد الإغفال الكامل، فالصهاينة أحيانًا لايذكرون العربى بخير أو شر، ويلزمون الصمت حيال الضحية،

ويُظهرون عدم الاكتراث الكامل بها (وهذه إحدى سمات الخطاب الصهيوني).

وإفراغ فلسطين من كل سكانها أو معظمهم (أى تغييبهم) هو أحد ثوابت الفكر الصهيوني، وهو عنصر مُتضمَّن بشكل صامت في الصيغة الصهيونية الأساسية. وهذا أمر منطقي ومفهوم، إذ لو تم الاستيلاء على الأرض وبقي سكانها عليها لأصبح تأسيس الدولة الوظيفية مستحيلاً، ولتم تأسيس دولة عادية تمثل مصالح سكانها بدرجات متفاوتة من العدل والظلم، فيهودية الدولة (مع افتراض تغييب السكان الأصليين) هو ضمان وظيفيتها وعمالتها.

ومن هنا، كان اختفاء العرب حتميا، ومن هنا كانت الصفة الأساسية للاستعمار والاستيطان الصهيونيين هي كونهما استعمارًا استيطانيا إحلاليًا. فصهيونيته تكمن في إحلاليته، كما أن إحلاليته هي التعبير الحتمي عن صهيونيته (ويهوديته المزعومة).

ورغم أن رصد مقولة «العربي الغائب» وتوثيقها أمر بالغ الصعوبة لأن ما هو غائب لا يمكن رصده وتوثيقه بالطريقة التقليدية التي تعتمد على الاقتباسات والنصوص وتحليلها، ومع هذا، فإن هناك عددًا كبيرًا من التصريحات والمفاهيم الصهيونية لا يمكن فهمها إلا في إطار مقولة «العربي الغائب» ويمكن أن يندرج تحت هذا كل ذاك الحديث المستفيض عن الأرض المقدسة وإرتس يسرائيل وصهيون وأرض الميعاد، فهو حديث يستند في نهاية الأمر إلى افتراض غياب فلسطين العربية، والحديث عن

استيطان المهاجرين من روسيا القيصرية باعتبارها «عاليا» أي «صعود»، والحديث عنهم باعتبارهم «معبيليم»، أي يهود يدخلون فلسطين كما دخلها العبرانيون القدامى رغم كل الصعاب والعوائق، هو أيضًا حديث يفترض غياب العرب وغياب تاريخهم. بل إنه يمكن القول بأن المصطلح الصهيوني ككل (نفي، عودة، تجميع المنفيين . . . إلخ) يفترض مفهوم العربي الغائب، وقراءة اى نص صهيوني وفهم أي برنامج صهيوني أمر صعب جدا، إن لم يكن مستحيلاً، من دون افتراض مقولة العربي الغائب كمثل أعلى ونقطة تحقق.

ولنحاول الآن أن ننظر للواقع من خلال عيون مستوطن صهيوني يرى العالم من خلال هذه العدسات الإدراكية: « إن ظهر عربي على شاشة وعي، فإنه يتحدى خريطتي الإدراكية، فهو المفروض فيه أنه غير موجود، وإن تجاسر وطالب بحقوقه ونادى بتطبيق قرارات هيئة الأمم على إرتس يسرائيل، أرض الميعاد اليهودية، فهذا دليل على جهله وتخلفه، ولابد من تلقينه درسًا، وإن بدأ يتحرك نحوي- أنا اليهودي عضو الشعب المختار وصاحب الحقوق المطلقة- فهذا يعني أنه إنسان مجنون وخطر لابد من القضاء عليه، فالعرب لا يفهمون سوى لغة القوة (وهذا هو أحد بنود الإجماع الصهيوني).

هنا يتحول العنف الإدراكي إلى عنف فعلي مسلح، أي إلى إرهاب، فتنطلق الصواريخ والمدافع والطائرات لتصبح فلسطين أرضًا بلا شعب، أو أرضًا يقطنها شعب لا سيادة له يعش داخل كانتونات تراقبه العيون

الصهيونية المسلحة لتضبط حركته وتجعله يتحرك داخل حدود الإدراك الصهيوني، وحينما يطالب الصهاينة الفلسطينيين بالجلوس معهم على مائدة المفاوضات فهم يطلبون منهم ذلك وهم قابعون داخل إدراكهم الصهيوني، فيعرضون عليهم سلامًا صهيونيًا حسب شروط صهيونية، يضمن استسلام الفلسطينيين، فإن لم يقبل الفسطينيون بالسلام/الاستسلام، فإن جيش الدفاع الإسرائيلي سيتحرك ليدك المنازل ويسويها بالأرض ليضمن أن الواقع الفلسطيني يتفق مع الإدراك الصهيوني له.

الهاجس الأمني وعقلية الحصار

ولكن لم يسمى جيش المستوطنين الصهاينة جيش الدفاع الإسرائيلي؟ يعود هذا بطبيعة الحال إلى تصور الصهاينة أن أرض فلسطين هي أرضهم وأن الفلسطيتيين دخلاء، ومن ثم فالبطش بالفلسطينيين وذبحهم هو من قبيل الدفاع عن النفس! ولكن ثمة بُعدًا آخر خفيًا للإدراك الصهيوني وهو ما نسميه الهاجس الأمني وعقلية الحصار. ويعود الهاجس الأمني إلى أن المستوطنين الصهاينة أدركوا أن الأرض التي يسيرون عليها ويدعون ملكيتها منذ آلاف السنين هي في واقع الأمر ليست أرضهم، وليست أرضا بلا شعب كما كان الزعم، وأن أهلها لم يستسلموا كما كان متوقعا منهم، ولم تتم إبادتهم كما كان المفروض أن يحدث، بل إنهم يقاومون وينتفضون ويتزايدون في العدد والكفاءات ولم يكفوا عن المطالبة بشكل صريح بالضفة والقطاع، ويشكل خفي بكل فلسطين وبحق العودة لها،

وقرارات هيئة الأمم المتحدة الخاصة بحق العودة لاتزال سارية المفعول. ولم تُقبل إسرائيل عضوًا فى المنظمة الدولية إلا بعد تعهدها بتنفيذ هذه القرارات ، ويساندهم في هذا كله الشعب العربي، ومسألة العجز العسكرى العربى والتفوق العسكرى الإسرائيلى ليست مسألة أزلية، وقد أثبتت حرب ١٩٧٣ ثم المقاومة فى لبنان، وبعدها الانتفاضة أن العرب قادرون على أن يعيدوا تنظيم أنفسهم ويهاجموا المستعمر ويُلحقوا به خسائر فادحة.

ثمة إحساس عميق لدى المستوطن الصهيونى بأن العربى الغائب لم يغب، وهو أحساس فى جوهره صادق، فالكيان الصهيونى محاصر بالفعل ومهدد دائما، والعرب فى واقع الأمر لا يمكن «الثقة بهم»، لأن الجماهير العربية لن تقبل حالة الظلم باعتبارها حالة نهائية رغم توقيع معاهدات السلام الكثيرة! وأقصى ما يطمح إليه المستوطنون الصهاينة هدنة مؤقتة تنتهى عادةً بمواجهات عسكرية، فالصراع مع الكيان الصهيونى صراع شامل على الوجود، لأن وجود الشعب الفلسطينى لا يهدد حدود الدولة الصهيونية أو سيطرتها على أجزاء من الأرض الفلسطينية وحسب، وإنما يهدد وجودها كله، كل هذا يعمق إحساس المتوطنين الصهاينة بأن دولتهم كيان مشتول، فرض فرضا على المنطقة بقوة السلاح، وهم أول من يعرف أن ما أسس بالسيف يمكن أن يسقط به، والإسرائيليون دارسون نهمون لتجربة استيطانية سابقة تمت فى نفس المكان وهى تجربة حروب الفرنجة (الحروب الصليبية فى المصطلح الحديث). وممالك الفرنجة التى

دامت حوالى قرنين من الزمان، رحل اصحابها، ولم يبق من آثارهم سوى بعض الأطلال ومما يعمق مخاوفهم إحجام يهود العالم عن الهجرة والتكلفة المتزايدة للتكنولوجيا العسكرية، كل هذا يولد الهاجس الأمنى المرضى وعقلية الحصار المرضية؛ وهى حالة لا علاج لها داخل الإطار الصهيونى ومهما قدم العرب من تنازلات يظل الهاجس الأمنى قائما، وكأنه لا علاقة له بالواقع، فهو حالة إدراكية مرضية لها جذور عميقة فى الواقع.

وقد ولد هذا الهاجس الأمنى إحساسا عميقا باليأس لدى الإسرائيليين، والإحساس بأن حالة الحرب دائمة، ويظهر هذا الاستسلام الكامل فى كلمات موشيه ديان فى جنازة صديقه روى روتبرج الذى قتله الفدائيون الفلسطينيون، فقد قال وزير الدفاع والخارجية الإسرائيلى الأسبق: «إننا جيل من المستوطنين ولانستطيع غرس شجرة أو بناء بيت، دون الخوذة الحديدية والمدفع، علينا ألا نغمض عيوننا عن الحقد المشتعل فى أفئدة مئات الآلاف من العرب حولنا، علينا أن نديـر رؤوسنا حتى لاترتعش أيدينا، إنه قدر جيلنا، إنه خيار جيلنا، أن نكون مستعدين ومسلحين، أن نكون أقوياء وقساة، حتى لايسقط السيف من قبضتنا وتنتهى الحياة.

ومنذ بضع سنوات لاحظ الشاعر الإسرائيلى حاييم جورى بمرارة ما سماه «مركب اسحاق» وهو أن الإنسان الإسرائيلى يولد وفى داخله السكين الذى سيذبحه، كما بين جورى أن هذا التراب (أى إسرائيل)

لايرتوى، فهو يطالب دائما بالمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتـى، كما لو كانت أرض إسرائيل آلهة ثأر بذيئة، لا مجـرد قطعـة أرض أو إقليم، كما لاحظ الكاتب الإسرائيلي بن عـيزر أن الإسـرائيليين الشباب، الذيـن يخدمون في الجيش ، يشعرون أن أهلهم بالاشتراك مـع الدولـة يضحـون بهم دون تعويض أو عزاء من عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت، ولـذا فهم يشعرون أن هذه الحروب هي تضحيــة علمانيـة بإسـحق»، أي أنـها تضحية بشرية لا هدف لها ولا معنى، والمؤرخ الإسرائيلي يعقـوب تـالمون يتحدث عن «عقم الانتصار»، بعد أن رأى الجيش الصهيوني ينتصـر فـى حرب تلو الأخرى ولا يحقق شيئا لأن الشعب الفلسطيني يرفض الاختفاء ولأن الشـعب العربـى لا يتوقـف عـن تـأييد الفلســطينيين وأن الشـعوب الإسلامية لا تزال متمسكة بالقدس وبأرض فلسطين.

وتتناول قصة «في مواجهة الغابـة» التـى كتبـها الروائـى الإسـرائيلي أبراهام يهوشوا، التي وصفت بأنها هدامة وانتحارية، بعض الأحداث في حياة طالب يكتب دراسة عن حـروب الفرنجـة، وقـد عُـين بطـل القصـة الإسرائيلي حارسا لغابة غرسها الصندوق القومي اليهودى في موقع قريـة عربية أزالها الصهاينة مع ما أزالوه من قرى ومـدن، وكـانت كـل شـجرة في الغابة تحمل أسم احد المساهمين المتحمسين من الصهاينـة التوطينيـين من يهود الخارج، ورغم أن البطـل ينشـد الوحـدة، إلا أنـه يقـابل عربيًـا عجوزًا أبكم من أهل القرية يقوم برعاية الغابة وتنشأ علاقة حب وكراهية بين العربي والاسرائيلي، فالإسرائيلي يخشى انتقـام العربـى، ومـع ذلـك

فإنه يجد نفسه منجذبا إليه بصورة غير عادية، بل يكتشف الحارس المعيّن من قبل الصندوق القومى اليهودى أنه يحاول «بلا وعى» مساعدة العربى فى إشعال النار بالغابة، وفى النهاية، عندما ينجح العربى فى أن يضرم النار فى الغابة كلها، يتخلص البطل من كل مشاعره المكبوتة.

والإحساس باليأس قد يؤدى فى النهاية إلى الفرار والهزيمة، ولكنه فى المراحل الأولى يؤدى إلى مزيد من العنف الفكرى الذى يؤدى بدوره إلى مزيد من الإرهاب الفعلى، وكلما زادت المقاومة الفلسطينية زاد البطش إلى أن يصل المستوطن الصهيونى إلى اللحظة التى يدرك فيها أن العنف لن يجدى فتيلاً أمام المقاومة وأن تحالف إسرائيل الاستراتيجى مع الولايات المتحدة والعالم الغربى (وهذه هى آخر بنود الإجماع الصهيونى) لن يفيدها كثيرًا فى محاولة قمع الفلسطينيين، عندئذ سيمارس هذا المستوطن تحولاً إدراكيًا إذ إنه لن يمكنه الاستمرار فى الادعاءات أمام نفسه بأن فلسطين هى إرتس يسرائيل وأنها أرض بلا شعب تنتظر عودته منذ آلاف السنين، عندئذٍ ستسقط الأسطورة وتبدأ النهاية.

لا نهاية للتاريخ

فى ٢١ من أكتوبر عام ١٩٧٣ كتبت فى جريدة الأهرام مقالاً بعنوان «لا نهاية للتاريخ» أشرت فيه إلى أنه بغض النظر عن نتيجة الحرب فإن نظرية الأمن الإسرائيلية المبنية على فكرة الحدود الجغرافية الآمنة والتى تسقط عنصر الزمان قد انتهت، لأن العرب أثبتوا مقدرتهم على تطوير

أنفسهم بمرور الزمن وحينما حانت اللحظة المواتية، تحركوا وألحقوا الهزيمة بالعدو الذى أدرك بعدها أن الأمن لا يوجد في المكان وحسب، وإنما يوجد فى الزمان أيضًا، وأنه ليس مسألة خاصة بالعلاقة بالجبال والحواجز المائية والترابية، وإنما أمر يتعلق بالعلاقة مع البشر، وقد أنجزت انتفاضة ١٩٨٧ شيئًا من هذا القبيل، فمن خلال فعل المقاومة، اضطر الإسرائيليون إلى الاعتراف بالوجود الفلسطيني، وجود هزيل، محاصر من كل مكان، ولكنه وجود حقيقي، أى أن الخريطة الإدراكية الصهيونية تم تعديلها بشكل جذري واختفت مقولة «العربي الغائب» ومع هذا استمرت المقولات الأخرى، وهذا ما تكفلت به انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ (التي يطلق عليها البعض اسم انتفاضة الاستقلال) فقد تركت جرحًا غائرًا في الوجدان الصهيونى أكثر عمقًا وجذرية من أى جرح سابق، فلم يعد بوسع الصهيونى أن يزعم أن العربي شخص متخلف هامشي أو عدو أزلي لا عقلاني لليهود. فقد رأى بعينيه السكان الأصليين، الفلسطينيين، وقد هبوا هبة رجل واحد يدافعون عن حقوقهم المشروعة التي لا يمكن التنازل عنها، وأرسلوا له حجرًا يحمل رسالة لا يمكن أن تُتهم بالتخلف أو الهامشية، رسالة تخبره أن وهم السلم المبنى على الظلم والبطش قد انتهى، وأنه لاسبيل أمامه إلا السلام المبنى على العدل والذى لا ينطلق من الإجماع الصهيونى ونظريات الحقوق اليهودية المطلقة. كما رأى الشعب العربي والشعوب الإسلامية تتحرك بتلقائية غير عادية لمساندة الشعب الفلسطينى فى كفاحه بشتى السبل

(ولاشك أن هذا أرسل رسالة واضحة جلية لصُنَّاع القرار فى الغرب الذين كانوا قد شطبوا من حساباتهم ما سموه «الشارع العربى» و«الشارع الإسلامى»، أى الرأى العام العربى والرأى العام الإسلامى، ومما لا شك فيه أنهم سيعيدون حساباتهم.

إن الحلم الصهيونى، بهذا المعنى ، قد تم تقويضه وإلى الأبد وانتهى الوهم بأنه يمكن للمستوطنين الصهاينة التعايش مع العرب حسب شروطهم العنصرية. ومن الآن فصاعدا، مهما يحدث بعد انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠، حينما سينظر الصهيونى إلى العربى بعيونه المسلحة فإنه سيرى مشروع انتفاضة، وسيرى يدًا تمسك بحجر، وأن هذا العربى الذى يسير أمامه فى سلام، والذى دخل معه فى مفاوضات سلام ما يقرب من عقد من الزمان، هو فى واقع الأمر عربى يلتقط أنفاسه ليعود ليقاوم وليرفع رايات العدل والصدق فى زمن يكثر فيه الكذابون والجبناء. وهذا هو الإنجاز الأعظم لانتفاضة الاستقلال. والله أعلم.

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.

- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات.

بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

obeikandi.com